ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب

Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 06 العدد: 01- (2022) ص 238- 247

247

الشعر الشعبي الجزائري بين الماهية وروح المصطلح

Algerian folk poetry between the essence and the spirit of the term

د،حياة بوخلط*
جامعة المسيلة (الجزائر)
hayet.boukhalat@univ-msila.dz

د، عزوز ختيم
جامعة المسيلة (الجزائر)
Azzouz.khatim@univ-msila.dz

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021/08/30
تاريخ القبول:
2021/10/02

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الشعر
- ✓ الشعبي
- ✓ الجزائري
- ✓ الماهية
- ✓ المصطلح

الملخص:

تأتي أهمية هذا البحث من حيث أنه يقدم إجابات لسؤال الماهية حول مصطلح الشعر الشعبي، وذلك من حيث تقديمه لجملة من المصطلحات التي تلتقي في جوهرها عند ماهية الشعر من حيث أنه تعبير عن مقومات الحضارة والإنسان، ولهذا البحث أيضا أهمية كبيرة حيث أنه يبرز نشأة الشعر الشعبي في الجزائر، ويقدم نماذج تاريخية تمهد لنشأة هذا الأخير، وطرق تدوينه، هذا إضافة إلى أسماء لشعراء ومؤرخين أسهموا في التأريخ لنشأة الشعر الشعبي في الجزائر، سيتبع هذا البحث المنهج التاريخي التحليلي في عرض ماهية المصطلح وتحليله تاريخيا واجتماعيا، ومدى مطابقته لمضمون الشعر ونشأته، وقد انقسم هذا البحث إلى قسمين، أما الأول فقد تطرق إلى تحديد مصطلح واحد يتفق عليه الباحثون والدارسون وذلك من خلال عرض جملة من المصطلحات والتسميات وفي القسم الثاني تم التركيز على نشأة الشعر الشعبي في الجزائر، والتأريخ له من حيث الزمان والمكان، وذلك من خلال تقديم آراء متعددة لباحثين في الميدان.

Article info

Received 30/08/2021
Accepted 02/10/2021

Abstract :

The importance of this research comes in that it provides answers to the question of the essence about the term folk poetry, in terms of presenting a set of terms that converge in essence with the essence of poetry in that it is an

* - المؤلف المرسل.

expression of the elements of civilization and man, and this research is also of great importance as it highlights the emergence of folk poetry In Algeria, it presents historical models that pave the way for the emergence of the latter, and the methods of codifying it, in addition to the names of poets and historians who contributed to the history of the emergence of popular poetry in Algeria. This research will follow the historical-analytical method in presenting the nature of the term and analyzing it historically and socially, and the extent of its conformity with the content of poetry and its origin. Emphasis was placed on the emergence of popular poetry in Algeria, and its history in terms of time and place, by presenting multiple opinions to researchers in the field. .

Keywords:
- ✓ *Poetry*
- ✓ *Popular*
- ✓ *Algerian*
- ✓ *Essence*
- ✓ *Term*

- تحديد المصطلح:

كثيرة هي الآراء والأقاويل التي حيكت حول ماهية الأدب الشّعبي، وتحديدا الشّعر في أوساط المثقّفين، ولاسيّما الرسميين منهم، فلقد قيل عنه بأنه أدب هابط، فجرّدوه من كل قيمه الفنية الحقيقية، بل واعتبروه مجرّد حكايات عجائز، وأدب عوام، فكان بذلك في نظرهم عقبة في سبيل استمرار الفكر، وتطور البشرية.

نظرة الاستعلاء هذه، جعلت الدّارسين ولاسيما المهتمين بالدّراسات الشعبية يرون فيها قصورا فكريا وضيقا في الأفق، لأن الأدب الشّعبي في نظرهم هو جوهر الإبداع بل وانعكاس للحياة الإنسانية، ولا يمكن بأي حال من الأحوال- حسب هؤلاء الدارسين – أن نتصور إبداعا أدبيا إنسانيا خالصا، دون الأدب الشعبي، ذلك أنه في داخل كل واحد منا، إنسان مبدع نائم بداخله، يلجأ في كثير من الأحوال، إلى الخيال والحكاية والخرافة، والتي تعتبر منابع وأصول الأدب الشّعبي.

وكثيرا ما يتبادر إلى الذّهن سؤال حول ماهية الأدب الشّعبي، وكيف بإمكاننا أن نميزه عن غيره من الآداب الأخرى، والأدب الشّعبي كما نعلم يحمل في جوهره التراث والعادات والتقاليد وهي أحد أهم موضوعات علم الفلكلور، إنه عريق، وضارب في عمق تاريخ الإنسان، يتطوّر بتطوّر الشُّعوب وينمو ويتغير، وتتغير مدلولاته ومفاهيمه بتغيّر الزمان والمكان، ومصطلح الأدب الشّعبي عموما إنما يقصد به الفلكلور الذي يعتمد على الأغاني والمواسم والأفراح وكذا الألغاز والأنغام والحكايا.

ولقد تعودنا أن نذكر الأدب الشّعبي في مقابل الأدب الرّسمي أو الفصيح الذي يتمثل في الكلام الفصيح والقصيدة الفصيحة، وشعر آخر كتب بلغة ملحونة هو "الزجل" و"المواليا" و"القوما" و"الكان وكان"[1]، والذي يمثل جوهر الشّعر الشّعبي، أين نظرت من خلاله جل الدّراسات إلى القصيدة الشعبية على أنها زجل أو ملحون أو موشح أو شعبي، ممّا طرح العديد من التساؤلات حول تحديد أصل التّسمية، فنجد "المواليا" الذي بدأ فصيحا ثم استقر على أربعة (مصاريع مصرعة) أو (ناقصة التّصريع)، كما هو الحال مع "الدّوبيت"، ونجد أيضا "الكان وكان" الذي تتكون فيه الوحدة الشّعرية من أربعة نصوص غير متساوية وغير مصرّعة، إضافة إلى الزّجل الذي يعتبره كثيرا من الدارسين الوجه الشعبي للموشح الأندلسي الفصيح. وقد ذكر "ابن قزمان الأندلسي" بعض الملاحظات على الزجل، ويرى بأنه النثر في الأندلس والمغرب، وقد زحف إلى مصر حتى وصل إلى العراق[2].

هذا وإضافة للتسميات السابقة نجد : الحماق الحجازي، القوما، المرنّم، وكل هذه الأسماء كانت لغير المعرب من الشّعر وتختلف من مكان لآخر[3].

لقد كان العرب قديما ينتشرون دائما في البقاع الواسعة والصحاري والوديان والهضاب، فجاء بذلك تعبيرهم عن أحاسيسهم ومشاعرهم مسايرا لروح ذلك العصر، من هنا فإن المنطق يرجّح بأسبقية ظهور الشعر الشّعبي على الفصيح. ذلك أن ما يقوله عامة النّاس هو الذي يصوّر الحياة بكل تفاصيلها ووقائعها، وهو الأمر الذي أثار عدّة تساؤلات، كما طرح الكثير من الإشكاليات لاسيما فيما يتعلق بالتّسمية، فأطلق عليه الدّارسون والنّقاد تسميات كثيرة تختلف باختلاف البيئات والشُّعراء.

وفي استعراض لأهم هذه المصطلحات نورد رأي المرزوقي الذي قال بأن "الشعر الشّعبي إنما يشمل كل شعر منظوم بالعامية، سواء كان معروف المؤلف أو مجهوله، وسواء دخل في حياة الشّعب، فأصبح ملكا له، أو كان من شعر الخواص، وعليه فوصفه بالملحون أولى من وصفه بالعامي، فهو من لحن يلحن في كلامه، أي نطق بكلام عامي أو بلغة عامية غير معربة"[4]. وإضافة إلى ذلك أشار العلاّمة "ابن خلدون" في مقدّمته إلى الشّعر الملحون الشّعبي، فذكر أن واضعه هو رجل من أهل الأندلس، كان يعرف "بابن عميرة" الذي نزل مدينة فاس، وعنه نقل النّاس هذا الأسلوب في نظم الشّعر بدون تكلف، بالإضافة إلى "ابن قزمان الأندلسي الزجال" (555 هـ . 1660). الذي غمر الأدب الأندلسي بأزجاله وشعره الملحون، ويَسَّر بإبداعه هذا ما كان متعسّرا على العامة فأخذ كلّ واحد منهم ينظم كلماته شعرا على النّمط الجديد بلهجته مثل: "الكان وكانّ و"الموالية" و"السلسلة" و"الدويت" و"المستطيل" و"المنسرد" و"المطرب"[5].

- كما ذهب اتجاه آخر إلى إطلاق تسمية "الشعر الملحون" على هذا الشعر، ومنهم "عبد الله ركيبي" الذي اختار مصطلح الشّعر الملحون دون غيره من المصطلحات الأخرى كالشعبي والعامي، يقول عبد الله ركيبي: "لما كان الشّعر الملحون في معظمه تقليدا للقصيدة المعربة فإن الفرق بينه وبينها في الإعراب، فهو إذا من لحن يلحن في الكلام، إذ لم يراع الإعراب والقواعد اللغوية المعروفة"[6].

ولقد بيّن "عبد الله ركيبي" أن مفردات هذا الملحون عربية خالصة في معناها، وكذا الأغراض التي تؤديها، وفضل "عبد الله الركيبي" اسم الملحون عن غيره من الأسماء، لعدّة اعتبارات واتّخذ من هذه التّسمية مصطلحا يراه مناسبا لهذا النّوع من الشعر.

و لقد أورد "عبّاس الجراري" أكثر من 11 اسما أطلقها الشعراء الشّعبيون على أشعارهم منها الزّجل، الموهوب، السجيّه، الكلام، النّظم، الكريحة (القريحة)، القريض، الأوزان، اللّغا، العلم.[7] أما "التلّي بن الشّيخ" فقد استعرض بعضا من هذه الأسماء عندنا في الجزائر، فذكر الميزان، اللّغا، الكلام، القول، الشعر والقصيدة[8].

و في معرض هذا الحديث يتبادر إلى أذهاننا سؤال حول حقيقة الاسم المستخدم وهل هو موحد في الأقطار العربية، إذا كنّا نجد اختلافا بين القطر والآخر؟

لعل مَردّ هذا الغموض والاختلاف في تحديد هذا المصطلح دون الآخر، سواء كان الشّعبي أو الملحون أو الزّجل، إنما يعود لعدم وضع تحديدات دقيقة لهذا المصطلح، لذلك تظلّ وجهات النّظر متباينة، واجتهادات شخصية قد تصيب وقد تخطئ "وإذا كان "محمود ذهني" يرى أن الأدب الفصيح يمثّل هرم الثقافة التي يشكّل فيها الأدب الشعبي قاعدته الحصينة التي تنتشر في ربوع هذه الجماهير"[9]، فإن ذلك يفتح مجالات البحث والسؤال عن تعدد التسميات واختلافها في القطر الواحد.

- ففي تونس مثلا، نجد بعضا من هذه الأسماء متداولة، فهم يقولون "المعني" ويقولون "الشعر" و" المنظوم" وهو تنوع يتشابه مع ما كانت العرب تطلقه على الشّعر المدرسي، كالشوارد والعصمئيات والمذهّبات والمعلّقات[10].

كما تتعدُّد التّسميات في مصر واليمن ولبنان من الحميني إلى الموّال والمبيت والموشح والزّجل وغيرها، وهي كلُّها تسميات تسعى إلى توحيد المصطلح في كافة الأقطار العربية.

"الزّجل"، هذه الكلمة اعترض عليها كثير من الدارسين لأنها تعتبر محاكاة للموشح والفرق بينهما في لغة الكتابة، فالموشّح فصيح، والزّجل ملحون، والواقع أن الزّجل مصطلح لا يوافق في غالب الأحيان الشّعر الجزائري، ذلك أن ألفاظ هذا الأخير، ليست بالعامية وإنما هي خليط من العامية والفصحى، وهل الزّجل هو حقا الاسم المستخدم في كافة الأقطار العربية؟ ذلك أننا نجد التسمية تختلف في البلد الواحد بين جهة وأخرى.

فهل معنى ذلك أنه يحقّ للشّاعر الشّعبي أن يختار الاسم الذي يراه مناسبا لقصده وغرضه من القصيد، وهذا ما ذهب إليه الدّكتور "العربي دحو" في كتابه "الشّعر الشّعبي ودوره في ثورة التّحرير"، حيث يرى أن إطلاق هذه التّسمية يجب أن يكون على صلة بكل الأطراف المعنية في النص الشّعري، ومنهم الشّعراء الذين يختارون مصطلحات أخرى يرونها أليق بأشعارهم وأنسب ممّا نراه نحن[11].

إذن، من خلال ما سبق ذكره، وبالعودة إلى هذه الآراء التي يقترب فيها أصحابها من الطبقات الدّنيا للشّعب، فإنه من البديهي أن تكون صفة الشّعبية أحق بالإطلاق على هذا النّوع من الشّعر، من صفة الملحون أو الزّجل، الذي لا يتميز بالشّمولية نفسها التي تتميز بها صفة الشّعبيّة، وهو الرأي الذي نادى به الدّكتور "العربي دحّو"[12]، كما أن "التلّي بن الشّيخ" لا يتفق مع من أطلقوا هذه التّسميات على الشّعر، لأنهم يحاولون إبعاد صفة الشّعبية عنه، ولعل ذلك راجع ذلك إلى عدم تحديد مفهوم الشّعبية في الأدب[13].

والشّائع أنّ صفة الشّعبية في الشّعر تنصرف إلى ما له عراقة وقدم، ولمّا كان الشّعراء يختلفون عن بعضهم البعض في بيئاتهم وتوجّهاتهم، إضافة إلى أنّ القوالب التي حدّدت شكل القصيدة الشّعبية القديمة في الزّجل والموشّح والملحون، قد ينتابها شيء من التّجديد، فإنه يمكننا القول أنّ أنسب التّسميات لحدّ الآن هو مصطلح الشّعر الشّعبي، ذلك أنّه ينزل إلى طبقات الشّعب عامّة، ويصوّر أحلامهم وطموحاتهم، ويحتضن أفراحهم ويواسي جراحاتهم وأحزانهم، فكيف نشأ هذا الفنّ من الشّعر، متى ظهر وما هي ميزاته وخصائصه، هذا ما سنحاول الكشف عنه في ثنايا هذه الدراسة محطاته المواليات إن شاء الله.

- نشأة الشّعر الشّعبي الجزائري

إنه وعلى الرّغم من صعوبة إيجاد مصطلح جامع مانع، يمكّننا أن نطلقه على الشّعر الشّعبي الجزائري، فإنه ثمّة صعوبة أخرى، تكمن في تحديد جذور القصيدة الشعبية الجزائرية نفسها، ومن هنا يطرح السؤال: كيف ومتى نشأت القصيدة الشعبية الجزائرية؟ وهل وصلت الدراسات التي بحثت في حقيقة وزمكانية المنشأ إلى حسم لهذا الإشكال؟ ذلك أن كثيرا من هذه الدّراسات أشار فيها أصحابها لها إشارة عابرة فقط، وبعضا آخر لم يقدم دليلا علميا واضحا وثابتا، يقرّ بأصل المنشأ وبداياته.

والحقيقة أن نشأة الشّعر الشّعبي في الأقطار العربية -والجزائر تحديدا – صعب جدًا أن نجد لها تحديدا دقيقا، لأن الأبحاث التي اطّلعت عليها إنما تبنى في هيكلها –والأغلبية منها– على التّخمين والنّسبية، معتمدة في ذلك على طرح آراء النّقاد والدّراسيين وتقارن هذه بتلك، ويعدّ كتاب "العربي دحّو": "الشّعر الشّعبي ودوره في الثّورة التحريرية" وكذا كتاب "عبد الحميد بورايو": "الأدب الشعبي الجزائري" مرجعين مهمّين في استعراض لجملة الآراء والحقائق، التي تحدّثت عن حقيقة المنشأ، ومما لاشكّ فيه أن الجامعة ممثّلة في أساتذتها وباحثيها ونقّادها، هي أوّل من سيتيح الفرصة لإثارة النّقاش والبّحث في مثل هذه القضايا، خاصّة وأن ثقافتنا الشّعبية الجزائرية، تمثّل رصيدا معرفيا ثريّا، يحمل في طيّاته مبادئ، وأصول الهويّة الوطنيّة بكلّ الأبعاد والمعايير.

إنّ جذور الشّعر في الجزائر، كانت مرافقة للإنسان الجزائري عبر عصور مختلفة، لكنّها لم تكن واضحة المعالم، إلاّ مع الحملة الهلالية على شمال إفريقيا، ومع الجاليات العربية الإسلامية النّازحة عن الأندلس، بعد اجتياحها من قبل الإسبان.[14]

وقد ظلّت هذه الجذّور حيّة، تنمو في ظلّ ظروف اجتماعيّة وثقافيّة وسياسيّة حتّى جاءت ثورة التّحرير التي أعادت لها فتوّها ونظارتها.

لقد حاول جلُّ البّاحثين في نشأة القصيدة الشّعبية، الفصل بين عهدين ثقافيين: عهد ما قبل الإسلام[15]، والعهد الإسلامي، والثقافة العربيّة التي وفد بها الفاتحون الهلاليون[16] في حملتهم المعروفة على الجزائر(القرن الخامس للهجرة)، والحقيقة أن عدم تحديد فترة ظهور الشّعر الشّعبي لا تخصّ الجزائر وحدها، بل يعني ذلك كلّ الأقطار العربيّة، يقول الرّافعي "إننا لا نعرف بالتّحديد أصل الشّعر العامّي، ولا نشأته، ولكنّنا نشكّ أنّه قديم وأنّ ظهورَه كان في أواخر القرن الأوّل للهجرة[17]. ورغم تساؤلات كثيرة حول تبلور الصياغة الشّعرية الشّعبية في الجزائر، نستطيع أن نقرأ من أوائل البّحوث عملا أنجزه "أحمد بن سحنون الرّاشدي" (ق18م) الذي يربطه بغلبة العَجَمَة على الألسِنة، فصار النّاس يتغنّون بالملحون، ويهجون ويمدحون، ولهم في ذلك فنون رقيقة، ومعان رشيقة، وزيادة على نصوص الأزجال الأندلسية والمغربية، فإن النّصوص الشّعرية الشّعبية الهلالية، التي أوردها "ابن خلدون" تعكس طابع الفترات الأولى لهذا الفن[18].

من هنا انطلق أصحاب الرّأي الأوّل في قولهم بأن القصيدة الشّعبية في الجزائر كانت قبل الفتح الإسلامي، معتبرين أصولها منحدرة من الشّعر الأوربي، بينما ثمّة من يقرّ بوجود قصيدة شعبية في الجزائر قبل الزّحفة الهلالية، لكنّها تلاشت واندثرت بعد الفتح الإسلامي، لأنّها لا تتماشى مع المعتقدات، والثّقافة والمجتمع الجديد الذي نشده الإسلام.

أما الرأي الثّاني فيرى أصحابه أنّ القصيدة الشّعبية ظهرت في الجزائر مع الفتح الإسلامي، في حين ثمّة من يقول بأنّها قد ظهرت مع الزّحفة الهلالية التي خدمت كثيرا سكان شمال إفريقيا وعرّبتهم بسهولة ومكنّتهم من الثّقافة العربية[19]. إذن، ومن خلال استعراض هذه الآراء، يمكن لنا أن نتناول بالتّحليل والتّفسير مدى ثبات هذه الآراء أمام الحُجج والبراهين، وهل تقوم حقا على منطق الإنصاف وتحديد حقيقة وزمكانية المنشأ؟

يرى العالم الفرنسي "جوزيف ديسبارمي" أنّ الشّعر المغربي بصفة عامّة، والشّعر الجزائري على وجه الخصوص، إنّما يستمدّ أصوله البعيدة من أشعار بربرية وقبل احتلال الرّومان للجزائر، ويقول "ألبرت كامي" أن الشّعر كان موجودا دائما في الجزائر[20].

هذان الرأيان تناولهما الدّكتور "العربي دحّو" معتمدا في ذلك مبدأ التحليل والنّقاش بالحجّة والبرهان، فإذا كان "ديسبارمي" يؤكّد وجود شعر في الجزائر قبل مجيء الرّومان إليها، فإنّنا حينما نتأمّل قوله "أشعار بربرية" نجده ينفي وجود ذلك الذّوبان بين هذه الأصول -وإن كانت موجودة حقا-، وبين الأصول الشّعرية العربية التي أسهمت حقا في تغيير ثقافة السكّان وتغذيتها بقوالب جديدة في الشّكل والمضمون، وإذا كان "ديسبارمي" يرى أن الأشعار البربرية هي الأصل والمنبت، فهل معنى هذا أنه على دراية بلهجات السكان الأصلية، كالشّاوية والأمازيغية، أم أنه بنى هذا الرأي على مجرد الافتراض والتّقريب، وهو الأمر الذي لا يجعله يثبت أمام المنطق والسؤال.

- هذا الرّأي الذي وقف إلى جانبه دارسون آخرون لتحديد نشأة القصيدة الشعبية في الجزائر، حتى يثبتوا بربرية هذه الأشعار، لم يقفوا ثابتين أمام المضمون الإسلامي الذي جاءت به هذه القصائد، وهو الأمر الذي يجعلنا نتأكّد من عزم أصحاب هذا الرّأي على عزل الثقافة الإسلامية عن النّص الشّعري الشّعبي عموما.

- أما أصحاب الرّأي الثّاني، والذي مفاده أن القصيدة الشّعبية قد ظهرت في الجزائر مع الفتح الإسلامي، فثمّة من يرى حقا بأن هذا القصيد قد جاء مع الفتح الإسلامي ثم انتشر بصورة قويّة وواضحة بعد مجيء الهلاليين إلى الجزائر، والذين حملوا معهم لهجاتهم المتعددة، فتوغّلوا في الأوساط الشّعبية وساهموا في تعريب الجزائر بصورة جليّة[21].

لكن المتصفّح لكتاب "عبد الله ركيبي" يرى أنّ هذا الأخير قد اعتمد هذا الرّأي، لأنّه أراد أن يدرس الشّعر الدّيني الجزائري، وهو ما يجعلنا نفهم بأن "عبد الله ركيبي" قد اعتمد على مبدأ ترجيح هذا الرّأي على الآراء الأخرى، حتى ينسجم ذلك مع نصوصه التي انتقاها وهذا "التلّي بن الشيخ" يرى أن المتصفّح لنصوص الشّعر الشّعبي الجزائري يلاحظ وجود ظاهرة في كافة نصوص هذا الشّعر، هي أنّه يحمل في أعطافه روح الطابع الإسلامي[22]، وهو ما يمكّننا من القول بأن الشّعر الشّعبي الذي وصلنا بعد الفتح، لا يعني بالضرورة أن سكان الجزائر لم ينظموا الشّعر قبل دخول الإسلام، فمنطقي جدا إذن أن يكون لشعب سابق للإسلام شعر يعبّر من خلاله عن عاداته وتقاليده ووجدانه وظروفه المحيطة به آنذاك.

لكن هذا الرأي الذي ذهب إليه "التلّي بن الشيخ" ليوفّق بين هذين الرأيين يفتقر إلى شواهد وحجج وبراهين، وهو ما يجعل هذا الرأي والآراء الأخرى تقوم على مبدأ التخمين والظّنّ والذي ترفضه الدّراسات العلمية الجادّة.

من هنا يأتينا رأي آخر، يذهب فيه أصحابه إلى أن الشّعر الشّعبي في الجزائر قد ظهر مع الزّحفة الهلالية، وانتشار أشعار بني هلال وبني سليم الذين زحفوا على القيروان ثم الجزائر في القرن العاشر[23].

وقريبا من هذا الرأي ثمة من يقول أيضا أن ظهور الشّعر الشّعبي في بلدان المغرب العربي، يرجع إلى انتقال نماذج من الشّعر الشّعبي الذي انتشر بكثرة في المشرق العربي إلى بلاد المغرب[24].

هذه الآراء ركزت جميعها على نشأة القصيدة لكنها أغفلت عن دعامة أساسية ومهمة في تحديد هذا الأصل والمنبت، إنّه الشّاعر في حدّ ذاته، واستفساره عن أشعاره وكذا أساتذته، وعن الشّعراء اللذين صاحبهم لأن ذلك من شأنه أن يكشف لنا حقيقة وبدايات نشأة الشعر الشعبي في بلاد المغرب، وفي الجزائر خصوصا.

غير أن الحديث عن الشاعر وعلاقاته بأقرانه وبيئته فيه من الصعوبة ما يجعلنا نتوه في دروب الدواوين والكتب الشعرية التي ما تزال حبيسة الرفوف والخزائن هذا إذا لم تكن قد ضاعت بسبب الإهمال ونظرة الاستعلاء لكل ما هو عامي وشعبي والنص الوحيد الذي اطُّلع عليه هو الذي يقول فيه صاحبه[25].

سَلامْ الله عْلى المْشَايْخ الْخْبَار	**مْنْهُمْ نَلْتْ الْمْعَانِي كيما نال قاري**
لخلوفي كان سابق في هذي لقطار	**مداح المصطفى قريشي المختار**
و المغراوي خليفة رئيس الشعراء	**فلالي صاحب السجاتي عقاري**
بوقندورة المحتبي الشيخ النجار	**علم الموهوب ليه هداه الباري**
و الأغواطي مع المحدوب البشار	**في داج الليل هايم القفرة ساري**
و العروسي من أولاد طه بولنوار	**مجدوب الدارج البايع والشاري**

هذا النص مأخوذ من قصيدة "السراية" وصاحبه هو الشاعر الشعبي"مبارك بن بولطباق"، حيث رتب فيه الشّعراء الشّعبيين الذين تتلمذ على أيادهم ترتيبا تاريخيا وفكريا، وبهذا يكون قد وافق من يربط ظهور القصيدة الشعبية في الجزائر بالحملة الهلالية وكذا مع الجاليات العربية الإسلامية النازحة من الأندلس بعد اجتياحها من قبل الإسبان[26].

إذن من خلال كل ما سبق ذكره فإن القصيدة الشعبية في الجزائر كانت مرافقة للإنسان عبر أزمنة مختلفة، غير أنها لم تكن واضحة المعالم إلا مع الحملة الهلالية على شمال إفريقيا. وكانت هذه المعالم تتضح أحيانا وتغيب أخرى بسبب الظروف وتعاقب الأجيال وكذا الأزمنة، كما أن الحروب التي تعاقبت على هذا المجتمع واحتلال أقاليم من الساحل الجزائري

وكذا انتشار الاستبداد والإقطاع في العهد التركي، كان مناسبا لانتشار النص الشعبي المقاوم، ولعل أكثر ما بقي من الشعر الشعبي هو ذاك الذي يمجد انتصارات العثمانيين، ومن أقدم قصائده نذكر نموذج الأكحل بن خلوف، والمعروف باسم "لخضر" تلك المعركة التي دارت بمرسى مستغانم بين المسلمين والإسبان "معركة مازغران" وقد كان الشاعر فيها متحمسا جدا لانتصار المسلمين بالمعركة حيث استهلها بقوله :

يا سايلين عن طراد الروم قصة مازغران معلـومـة

جيش بلا سلطان غير يهوم ضاقت به جناح معدومة[27].

ولعل أيضا ما يؤكد أصالة الشعر الشعبي والتصاقه بالواقع وتسجيله للحوادث التاريخية هو أن أول من تحدث عن سقوط العاصمة الجزائرية سنة 1830 ولكن بدموع حارة كان شاعرا شعبيا هو "عبد القادر الوهراني"[28]، الذي لم يسكت بعده الشعراء حيث تعرضوا بسبب مواقفهم الوطنية إلى التعذيب والقتل والسّجن والنّفي، ومنهم الشاعر الكبير "محمد بلخير" الذي نفاه الفرنسيون إلى جزيرة "كورسيكا" وشاعر آخر بجزيرة "كاليدونيا"، راح يشكو حاله في الجزيرة فكتب يقول:

يا حمام لقصور راني مباصي بالزور

من الحكم المذعور لمحان جات قوية

يتفق الباحثون في دراسات الشعر الشعبي الجزائري على أن هذا الأخير قد شرع في تدوينه ونشره – موثقا- والتعليق عليه إلى منتصف القرن 19، حيث نجد نصوصا قد جمعت ونشرت مترجمة إلى اللغة الفرنسية، وقد عثر عليها في الدوريات (خاصة في المجلة الإفريقية)[29]، أو حتى في بعض المؤلفات وهي في مجملها نصوص موثقة أرخت لحقيقة الكفاح المسلح مع المستعمر الفرنسي.

- ولقد كان من عادة الباحثين الفرنسيين الاعتناء بتاريخ هذه الوقائع، ويستعينون في سبيل ذلك بشهادات شعرية، كما كان هناك اعتناء خاص من طرف الدراسيين الفرنسيين بالحروب التي جرت في العهد التركي ما بين الحملات العسكرية التركية والمجموعات المحلية المشكلة للقبائل فيما بينها، ولعل أقدم نصوص مدونة للشعر القبائلي قام بتسجيلها الباحث الأمريكي" W.Hodgson " "هودفسون" قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة ببضع سنين لذلك يعد هذا الشعر من أقدم الأنواع الأدبية التي حظيت بالإهتمام بعد هذا التاريخ أي في مرحلة الإستعمار الفرنسي[30].

كما نجد مؤلفا قديما نشره في 1867 من طرف "هانوطو" صنف فيه الشعر القبائلي حسب مضمونه، فتناول فيه القصائد التاريخية والسياسية ثم الغنائية وكذا شعر الحكمة ثم الشعر السنوي، وقد أشار إلى غنى المادة الشعرية في هذه المدونة من حيث الشّكل على حساب المضمون، ولقد نشرت أيضا مقالات حول الشّعر في منطقة القبائل لكل من" رين ل. Rinn . L " و" لوسياني ج Luciani j " حيث اهتم كل منهما ببعض القصائد التي قيلت حول ثورة المقراني واختار نصوصا شعرية تهجو من تزعَّم الثورة[31].

وفي بدايات القرن العشرين، تحديدا سنة 1900، شرع "ألكسندر جولي Alex André Joly" في التعريف بالشعر البدوي الذي تناقله البدو الرحل في بعض مناطق الهضاب العليا والجنوب محددا أصنافه بتقديمه لنماذج شعرية منه تناولها بالشرح والتعليق، وكان ذلك في المجلة الإفريقية بين سنوات 1900 و1904[32].

ولقد قدم "ألكسندر جولي" جملة من الملاحظات ساقها حول الشّعر البدوي الذي برز بقوة عند البدو والرحل وتحديدا في منطقة الهضاب العليا الغربية بمنطقة التيطري[33]، لكن هل تعد هذه الأشعار حقا تمثيلا لمختلف أشكال شعر البدو والرحل، وما هي الدلائل والإثباتات التي وقف عليها "ألكسندر جولي"، كما تساءل "عبد الحميد بورايو" عن غزارة هذه

الأشعار التي لم تستمر بكيفية مناسبة ولم تقدم معلومات كافية عن طريقة تداولها، فيما عدا بعض الإشارات البسيطة، ولقد اكتفى ألكسندر جولي بالإشارة إلى الأشكال الشعرية مرتكزا في ذلك على مبدأ الفهم الغربي للشعرية وخصائصها[34].

وفي سنة 1901 نشر "Faure Biguet" مدونة شعرية للشاعر "أبو عثمان سعيد بن عبد الله المنداسي" (1583–1677) يتضمن مطولته في مديح الرسول (ص) والمسماة بالعقيقة، وبمجيء سنة 1904 ظهرت عدّة مدونات أهمها : كتاب "الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب" لـ: صونيك SONICK" فيه مجموعة من القصائد طبعت في باريس، بعضها ينتمي للشّعر الجمعي مجهول المؤلف، وينتمي بعضها للشعر الغنائي لشعراء معروفين أو حتّى مجهولين، ويتبادر سؤال إلى ذهن الباحث هنا، حول سر اهتمام المؤسسات الفرنسية بتدوين التراث والثقافة الشعبية الجزائرية، على غرار المؤسسات ودور الطبع في الجزائر، ولعل، بل وأكيد أن ظروف المجتمع الجزائري التي كان يعيشها آنذاك هي التي حالت دون ذلك، كما أن سعي الاستعمار إلى الاهتمام والتدوين كان من أجل الهيمنة وفرض السيطرة والتوغل إلى حياة الناس الاجتماعية، حتى يتمكن من طمس معالم وتاريخ وحياة هذا الشعب، ولم يتم إعادة طبع هذا الديوان ديوان المغرب إلا سنة 1955 بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية بالجزائر.

ويعتبر هذا الأخير أهم المصادر المدونة للشّعر الشّعبي الجزائري القديم، اعتنى فيه صاحبه بالشعر الاجتماعي بأسلوب ساخر وكذا ببعض الشعر الاباحي الذي لم يجرؤ البحث الجامعي في الجزائر على نشره حتى اليوم.

وفي السنة نفسها أي سنة 1904، والتي يسميها الدارسون والمؤرخون بسنة الشعر الشعبي الجزائري ظهر مؤلف "كشف القناع عن آلات السماع" "لأبي الغوثي بن محمد"، اعتنى فيه صاحبه بالشعر الغنائي وميز فيه بين الأندلسي والحوزي والعروبي، وأعيد طبع هذا الكتاب في الجزائر سنة 1995[35].

و تحضر مرة أخرى دهشة السؤال حول تأخر المؤسسات المطبعية في الجزائر لتدوين وطباعة هذه الكتب التي ترصد حقا تراثا، يشكل حلقة مهمة في تاريخ أمة وشعب، أم أن نظرة الاستعلاء والدونية كانت إلى وقت متأخر حاضرة في ذهنية الباحث الجزائري، الذي راح يخدم الفصيح والرسمي من الأدب على حساب الأدب الشعبي الذي كان أرضا خصبة وفضاء رحبا استقى منه الشعراء الرسميون ووظفوا معالمه الفكرية والخيالية والأسطورية في أدبهم الرسمي.

تدوين واهتمام المؤسسات الفرنسية بالشعر الشعبي الجزائري كان له الحضور الأكبر منذ سنة 1904، التي ظهرت فيها مجموعات شعرية أخرى مثل : مجموعة الأغاني والألحان من كلام الأندلس لصاحبيه : "يافال إدموند ناثان" و"سرور" yafil nathan edmond & sorrour وكذا مجموعة "أشعار قبائلية" لـ"عمار بن سعيد بوليفة"، ضم هذا الأخير أشعار أكبر شاعر عرفته منطقة القبائل في النصف الثاني من ق.19 وهو: "سي محند أو محمد".

بعد سنة 1904 ظهرت في فترات متباعدة مدونات أخرى، أمثال كتاب "الكنز المكنون في الشعر الملحون" لصاحبه "محمد القاضي"، وفي نهاية الأربعينيات "محمد بخوشة" بجمع الشعر الشائع في منطقة تلمسان والذي أنقذ الكثير منه من الضياع، ومن بين هذه الأشعار: بن مسايب، ابن تريكي، المنداسي، لخضر بن خلوف، قدور بن عاشور الزرهوني، بومدين بن سهلة... وغيرهم، وقد أعادت مطبعة ابن خلدون طبع هذه الدواوين في الأعوام الأخيرة، ويجب التنويه هنا إلى أنه قبل ذلك وفي السبعينات نشرت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ديوان الشاعر الكبير "مصطفى بن إبراهيم" الذي جمع وقدم له عبد القادر بوغرة، ونظرا لأهمية الكتاب فلقد ترجم إلى اللغة الفرنسية[36].

وإلى جانب هذه المؤلفات والدواوين الشعرية، التي ظهرت في فترة ما بعد الاستقلال جمعت أيضا مجموعات عن القصائد التي تهتم بشعر المقاومة والثورة المسلحة، كما ظهرت بعض الأنطولوجيات، ولعل أهمها أنطولوجيا "الشعر الشعبي

المغاربي ذي التعبير العربي" (الدارج) "لمحمد الحفناوي" و"أنطولوجيا الشعر الشعبي الجزائري"لسهيل ديب، وهما مطبوعان في باريس[37].

إذن من خلال ما سبق ذكره أمكننا القول أن الدراسة العلمية الجادة للشعر الشعبي الجزائري لم تظهر إلا بعد الاستقلال، وقد جُسد هذا الحضور من خلال عدد من الرسائل الجامعية التي تم نشرها في شكل كتب، وبعض آخر من الأبحاث المستقلة أو المنجزة في إطار وحدات بحث أو مقالات أو مطبوعات تم اصدارها عن هيئات البحث العلمي في الجامعة وفي فضاءات ملتقيات الفكر والأدب، وكذا بحوث "أحمد الأمين"[38] الميدانية في الشعر الشعبي الجزائري وعلاقته بالتراث العربي الاسلامي، إضافة إلى كتابات "العربي دحو" و"عبد الحميد بورايو" وكذا "بركة بوشيبة"[39] الذي اهتم كثيرا بالإيقاع الشعري في القصيدة الشعبية، واتخذ شعراء "ذوي منيع" دراسة تحليلية[40] وتطبيقية، غير أن أبرز دراسة ونموذج أكثر اكتمالا وشمولية هو كتاب: "أحمد طاهر" الموسوم بـ: الشعر الشعبي الجزائري (الملحون) إيقاعه وبحوره وأشكاله، ميَّز فيه صاحبه بين نمطين من الشعر المقطعي"Strophique" والذي له صلة وثيقة بالموشحات والأزجال الأندلسية والشعر القائم على التناظر الوزني"Isométrique" وهو قريب جدا من شكل القصيدة العربية العمودية التقليدية[41]

كما كان بمنطقة القبائل نصيبها الأكثر في الجمع والتدوين وكمثال على ذلك نذكر دراسة "تاسعديت ياسين" للإنتاج الشعري سنة 1990 عند أحد شعراء منطقة القبائل الصغرى الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين ذي طبيعة انثروبولوجية، وهو عبارة عن بحث عربت فيه الباحثة عن انتماء الشاعر للجماعة الفرعية داخل القبائل والمتمثلة في المرابطين وكذا أفكار جمعية العلماء المسلمين التي حملتها هذه النصوص الشعرية[42]، وتمسكها بما هو أصيل ومتجذر في عمق التراث الجزائري ممثلا في القبائل البربرية وأصالتها التي لا تنفك عراها أبدا، عن قيم الأخلاق، وهي القيم التي كانت تنادي بها جمعية العلماء المسلمين بالإضافة إلى التمسك باللغة والتاريخ والثوابت الوطنية.

دراسة أخرى استندت على العمل الميداني في جمع المواد الشعرية ودراستها من حيث الشكل والمضمون تمثلت في كتاب "مراد يلس شاوش"[43] الذي اتخذ أحد الأصناف الشعرية الفرعية وهو الحوفي – كمثال للدراسة في مدينة تلمسان.

إنه ومن خلال هذه الإطلالة العميقة في تحديد ماهية ونشأة الشعر الشعبي الجزائري الذي اختلفت فيه التسميات والجذور، فإن ذلك سينوع حتما في هذه الأشعار من حيث الشكل والمضمون، وهو الأمر الذي يتفق فيه جل الباحثين والدارسين مؤكدين أن مكانة الشعر الشعبي في الجزائر عميقة عمق تاريخ هذا البلد وجذوره مستمدة من عراقة وأصالة الإنسان والبيئة والعادات والتقاليد.

الهوامش:

[1] راجع كتاب حسين نصار، الشعر الشعبي العربي: منشورات إقرأ/ط2 1980، ص113 وما بعدها.

[2] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف المرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، 1981، ص: 263.

[3] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف المرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، 1981، ص: 263.

[4] إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف المرابطين، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 6، 1981، ص: 263.العربي دحو: نقلا عن محمد المرزوقي، الأدب الشعبي، الدار التونسية للنشر، ط5، 1967.

[5] سعيد جاب الخير: العلاقة بين التصوف وشعراء الملحون (الشعر الشعبي في الجزائر)، محمد بن مسايب انموذجا، مجلة القدس العربي، 12-13-14 أفريل 2007.

[6] عبد الله ركيبي: الشرع الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1981، ص265

[7] ينظر: عباس بن عبد الله الجراري: الزجل في المغرب/ القصيدة/، مطبعة الأمنية، الرباط، ص47 وما بعدها.

[8] ينظر: التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة من 1830 إلى 1945، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص 232.

[9] ينظر: محمود ذهني: الأدب الشعبي العربي مفهومه ومضمونه، دار الأدب العربي للطباعة، ط 1972، ص: 49.

[10] ينظر العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1989 ص: 30.

[11] ينظر: المرجع نفسه، ص: 30.

[12] ينظر: المرجع نفسه، ص: 29-31.

[13] ينظر: التلي بن الشيخ دور الشعر الشعبي في الثورة من 1830 إلى 1945، ص: 223.

[14] العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ص: 39.

[15] ينظر: المرجع نفسه، ص: 32 وما بعدها.

[16] ينظر: أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة، الجزائر 2007 ص: 271

[17] انظر: العربي دحو: الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ص: 39.

[18] ينظر: عباس بن يحي: مكونات الديني في شعر الريغي، الملتقى الوطني حول شعر محمد الريغي شبيرة: 24-25 ماي 2005- جامعة المسيلة، ص1

[19] ينظر: العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ص: 32.

[20] ينظر: المرجع نفسه، ص: 33.

[21] عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ص: 368.

[22] ينظر: التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي في الثورة من 1830 إلى 1945، ص: 236.

[23] ينظر: العربي دحو الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ص: 37.

[24] ينظر: المرجع نفسه، ص: 37.

[25] ينظر: المرجع نفسه، ص: 38.

[26] ينظر: المرجع نفسه، ص: 39.

[27] ينظر: المرجع نفسه، ص: 40.

[28] ينظر: أحمد الأمين: صور مشرقة من الشعر الشعبي الجزائري، دار الحكمة، ص: 5-6.

[29] ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، دار القصبة للنشر، 2007، ص: 37.

[30] ينظر: المرجع نفسه، ص: 38.

[31] ينظر: المرجع نفسه، ص 38-39.

[32] ينظر: المرجع نفسه، ص 40-41-44

[33] ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، ص 45

[34] ينظر: المرجع نفسه، ، ص 45-46

[35] راجع: المرجع نفسه، ، ص: 47.

[36] ينظر: المرجع نفسه، ، ص: 48.

[37] ينظر: المرجع نفسه، ص: 48

[38] أحمد الأمين: الشعر الشعبي الجزائري في سيدي خالد – ولاية بسكرة – 1850 – 1950- رسالة دكتوراه جامعة مرسيليا – فرنسا 1983.

[39] بركة بوشيبة: شعراء ذوي منيع الشعبيون (تراجم ونصوص) الصندوق الوطني لترقية الفنون والآداب، وزارة الثقافة – الجزائر 2002

[40] بركة بوشيبة: الإيقاع في القصيدة الشعبية عند شعراء ذوي منيع – دراسة تحليلية وتطبيقية – منشورات الجاحظية – الجزائر 2001

[41] أحمد الطاهر: الشعر الشعبي الجزائري (الملحون): إيقاعه بحوره وأشكاله- رسالة دكتوراه جامعة السربون باريس 1975.

[42] ينظر: عبد الحميد بورايو: الأدب الشعبي الجزائري، ص 51-52.

[43] مراد يلس شاوش: الحوفي: الشعر النسائي والأدائات الصوتية المغاربية – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر 1990.